مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 11- العدد 1 (مارس) 1442هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

المجاعات والأوبئة وانعكاساتها على الوضع الديموغرافي ببايلك الغرب الجزائري في أواخر القرن الثامن عشر.

Famines and Epidemics and their repercussions on the Demographic situation in Bailek western Algeria in The late eighteenth century

اسم ولقب المؤلف المرسل: بولغيث محمد الصديق-Boulghit Mohamed essedik صص363-375
الدرجة والعنوان المهني: طالب دكتوراة ل.م.د- قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1 (الجزائر) ، عضو باحث في مختبر تاريخ الجزائر.
البريد الإلكتروني: eseddik25@gmail.com
اسم ولقب المؤلف الثاني: حمدادو بن عمر Hamdadou benamar
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ- قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1 (الجزائر) /البريد الإلكتروني:sidahmedh1976@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2020/12/28 تاريخ المراجعة: 2021/01/06 تاريخ القبول: 2021/02/07

الملخّص: إنّ تأثير الأزمات الصحيّة والمعيشيّة التي مرّت بها الجزائر خلال الفترة الحديثة تعدّت آثارها المدمّرة إلى مختلف المجالات، وبالنسبة إلى التركيبة السكانية فقد أحدثت هذه الأزمات اختلالا كبيرا في التوازن الديموغرافي من خلال العدد الكبير جدا من الضحايا الذي حصدته في بايلك الغرب الجزائري خاصة مع نهاية القرن الثامن عشر، وإن كانت المعطيات العددية في هذه الفترة تنقصها الدقة والموضوعية في غياب إحصائيات رسميّة توثّق لهذه الأزمات.

لذلك ارتأينا في دراستنا هذه تسليط الضوء على ثلاثة محاور رئيسية هي كالآتي: في بداية المحور الأول الإشارة إلى التركيبة السكانية بالجهة الغربية كأهم عنصر في دراسة الوضع الديموغرافي، ثم التطرق لأهم الأزمات والكوارث التي شهدتها المنطقة والتي تميزت بتعاقب وتزامن ظهور الأوبئة مع المجاعات والجفاف ما أدّى إلى هشاشة الوضع الديموغرافي وقد كانت أخطر الأزمات خلال هذه الفترة سنتي 1786و1787م، والتي فاق عدد الضحايا خلالها ما خلّفته الحملات العسكرية الأوروبيّة في هذه الجهة خلال الوجود العثماني.

ثم انتقلنا للحديث عن المحور الأهم والمتمثّل في الآثار السّلبية المباشرة وغير المباشرة على البنية الديموغرافية خصوصا وأنّ هذه المرحلة من الموجات الوبائية والكوارث

الطبيعية كانت الأخطر على الإطلاق طيلة الفترة العثمانية مع ما توفر من معطيات وأرقام وتمثيلها من خلال جدول مع إبراز الاختلاف والتباين في الأرقام المقدّمة من طرف المصادر التي وثّقت لهذه الأزمات،ثمّ أشرنا إلى التعداد السكاني لأهم مدن بايلك الغرب الجزائري مع نهاية الوجود العثماني والذي تأثرت من خلاله هذه المدن وتقلص تعداد السكان فيها بشكل رهيب، كما أشرنا بشكل مختصر إلى الآثار الاجتماعية والاقتصادية لهذه الأزمات.

وتتزامن كتابة هذا المقال مع ما أحدثه وباء كورونا من نكسات ديموغرافيّة على المستوى العالمي ليتبين أن آثار الأزمات الصحيّة إضافة إلى ما تخلفه من عدد كبير من الضحايا، تتعدى آثارها المدمرة لتشمل مختلف نواحي الحياة، كما أنّها تفوق في كثير من الأحيان ما قد تخلّفه الحروب والنزاعات المسلّحة.

الكلمات المفتاحية: المجاعات؛ الأوبئة؛ الطاعون؛ الانعكاسات؛ الوضع الديموغرافي؛ الجزائر؛ بايلك الغرب؛ القرن18؛ الفترة العثمانية.

Abstract: *The influence of health and living crises that Algeria been through during the modern period.*

was catastrophique in different fields ,on the other hand it reaches the demographic compositionyhat was imbalance because of increase of the victims numbers in the western of Algerian Bailek.although the lack of data accuracy due to the absence of official statistics documents it effects of crises Especially In the end of 18 yh centery.

Therefore, our study requires referring to the demographic composition in the western region, then addressing the most important crises and disasters that the region has witnessedWhich was characterized by the succession and coincidence of the emergence of epidemics with famine and drought, which led to the fragility of the demographic situation and among the most dangerous crises during this period were the years 1786 and 1787 AD, during which the number of victims exceeded what was left by European military campaigns in this region during the Ottoman period, and then moving on to the most important axis, which is the direct and indirect negative effects on the demographic structure through the available numerical data.

The writing of this article coincides with the demographic setbacks caused by the Corona epidemic at the global level, to show that the effects of health crises, in addition to the large number of victims they leave behind, go beyond their devastating effects to include various aspects of life, as they often exceed what wars and conflicts may leave behind.

Keywords: Famines; the epidemic; the repercussions; the situation; the demography; Algeria; Western Bailek; 18th century; the Ottoman period; the droughy.

المقدمة: تعتبر الدراسات التاريخية عاملا مهمًا في كشف الكثير من الخبايا والأسرار الخاصة بالمجتمع، خصوصا إذا ما تطرق الباحثون إلى مختلف زوايا التاريخ، ومن تلك الجوانب المهمّة التي لا يزال مجال البحث فيها خصبا في تاريخ الجزائر الحديث النكسات الصحيّة والمعيشيّة سوءا في تجلّياتها أو انعكاساتها وتأثيراتها على مختلف الجوانب، ومن بين هذه الجوانب الوضع الديموغرافي فقد أحدثت هذه الأزمات اختلالات كبرى في التوازن السكّاني وما ترتّب علية من آثار سلبيّة على الوضع الاجتماعي والاقتصادي.

وقد مرّ الوضع الديموغرافي في الجزائر العثمانيّة بمرحلتين أساسيتين, مرحلة النمو والتطور من بداية القرن السادس عشر إلى غاية نهاية القرن السابع عشر، وساعد في ذلك وفود عناصر جديدة على المجتمع الجزائري كالأندلسيين و العثمانيين واليهود...، ثم شهدت الجزائر منذ بداية القرن الثامن عشر نزيفاً ديموغرافيا خطيراً بفعل الأوضاع الصحيّة والمعيشيّة المتردّية والتي كان لبايلك الغرب نصيب وافر منها خاصة مع نهاية القرن الثامن عشر،وما ساهم في تدهور الجانب الديموغرافي التزامن والتعاقب الذي ظهرت فيه هذه الأزمات،وقد تعدّت آثارها إلى مختلف الجوانب، وسنحاول في هذا المقال التطرّق لانعكاسات الأزمات الصحيّة والمعيشيّة.

كل هذا يجعلنا نطرح الإشكال الاتي: كيف كان الوضع الصحّي والمعيشي في بايلك الغرب مع نهاية القرن الثامن عشر؟ وما مدى انعكاس الأوبئة والمجاعات على الوضع الديمغرافي في هذه المنطقة؟

نشير في بداية هذه الدراسة إلى بعض مميّزات الأدبيات والمؤلفات المحلّية التي تناولت موضوع المجاعات والأوبئة خلال هذه الفترة والتي تعتبر شحيحة فمن أهمها نذكر كتاب حمدان خوجة بعنوان "إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء" والذي يغلب عليه الطابع الفقهي كما أنّه يتناول بصفة أساسية كيفية الوقاية من الأوبئة من خلال التجارب الأوروبية.

أما المجاعات فنذكر ما ألّفه صالح العنتري بعنوان "مجاعات قسنطينة"، والذي يشير إلى المجاعات التي ضربت الجهة الشرقية للبلاد كما يركز على الآثار الاجتماعية المصاحبة

للمجاعات، كما نجد مصدرا هاما للعربي المشرفي بعنوان «أقوال المطاعين في الطعن والمطاعين"، والذي يتطرق إلى مفاهيم وتعريفات حول الأوبئة، وطرق الوقاية والاحتراز منها كما يوثّق للأوبئة التي اجتاحت الجهة الغربيّة للجزائر والمناطق الشرقيّة للمغرب الأقصى وآثارها الديموغرافيّة والاجتماعيّة، لكنّها تخص الفترة التي سبقت الإحتلال الفرنسي للجزائر[1].

كما نشير إلى تركيزنا على وباء الطاعون في هذه الدراسة من خلال إستخدامنا لمصطلح "الأوبئة" كون مصطلح الطاعون هو الأكثر شيوعا خلال هذه الفترة.

1- التركيبة السكّانية في بايلك الغرب الجزائري: تقتضي دراسة الوضع الديموغرافي التطرّق إلى الخصائص الكمّية للسكّان كالكثافة السكّانية والنمو و التوزيع السكّاني إضافة إلى الخصائص النوعيّة والتي تتعلّق بالعوامل الاجتماعيّة كالتعليم والمستوى المعيشي والنشاط الاقتصادي...، لذلك نكتفي بالتطرّق إلى التعداد السكّاني كون دراسة الوضع الديموغرافي تتطلب التطرق الى هذا المفهوم بشكل واسع.

تختلف التقديرات والإحصائيات في تحديد عدد سكان الجزائر، وذلك لعدم وجود مصادر رسميّة يمكن الاعتماد عليها لكن المرجّح أنّ عددهم يتراوح بين 3 ملايين و4 ملايين نسمة، لكن الأمر المتّفق عليه هو أن غالبيّة السكّان يقطنون الأرياف حيث لا تتعدى نسبة سكان المدن 5%، وتبلغ نسبة سكّان المدن بالجهة الغربية حوالي 7% إلى 8%[2]، ولا يختلف سكّان بايلك الغرب عن المناطق الأخرى في خصوصياتهم كونهم سكّان مدن أو سكّان أرياف، فسكّان المدن انقسموا لجماعات طائفية وحرفية؛ فمن الناحية الطائفيّة كانت فئة العثمانيين (الأتراك) تحتل المرتبة الأولى في السلّم الإجنماعي[3].

أمّا المجموعة الثانية فهي جماعة الكراغلة، والتي كانت منتشرة في بايلك الغرب؛ فمثلا كان الكراغلة يمثلون غالبيّة سكان مدينة تلمسان[4]، أما بقيّة سكّان المدن فكانت تشكّلها ثلاث فئات: فئة الحضر وهم سكّان المدن الأصليين ومهاجري الأندلس، إضافة إلى فئة البرّانية كالأغواطيّين والبساكرة والزنوج...

هذا إضافة إلى فئة الدخلاء التي تتميز على مختلف الفئات الأخرى دينيًا وحضاريًا وحتى اقتصاديا، والتي تضم الأسرى المسيحيين، وقد تناقص عدد هذه الفئة مع حملة

"اللّورد إكسماوث" سنة 1816، لذلك أصبحت غالبية هذه الفئة من اليهود، وبخاصة الوافدين من الأندلس[5].

أما سكّان الأرياف فكان تصنيفهم حسب علاقتهم بالسلطة الحاكمة بين قبائل متعاونة وقبائل خاضعة وأخرى ممتنعة[6].

وقد قدّر عدد سكان بايلك الغرب بما يقارب 600 ألف نسمة، موزعة على 275 قبيلة[7]، كما أنّ 202 قبيلة تدار بصفة مباشرة من طرف السلطة على مساحة شاسعة تقدرب 102000 كلم مربّع، وكما ذكرنا فإن ما نسبته 92% تمثل عدد سكّان الأرياف، وما تبقّى يمثل نسبة سكّان المدن[8].

2- **المجاعات والأوبئة ببايلك الغرب الجزائري في أواخر القرن 18م:** في معرض الحديث عن الأزمات الصحيّة كانت تمتاز بخصائص عديدة؛ فقد أشارت الباحثة عائشة غطاس إلى أن معظم الأمراض والأوبئة لم يكن مصدرها الجزائر وإنّما كانت وافدة[9].

أما فترات انتشارها فقد تميز ت بالظهور بصفة تكرارية خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر كل 7 أو 8 سنوات، كما تساعدها في ذلك المجاعة الشديدة بسبب الجفاف وقلّة الإنتاج الفلاحي[10]، ومن حيث التوزيع الجغرافي للأوبئة الطاعونية؛ فقد كانت الجهة الغربية لا تتعدّى 15% عكس مدينة الجزائر وما جاورها 54%، وبايلك الشرق 26%[11]، كما نشير إلى أنّ المقصود بمصطلح "الأوبئة" أو "الوباء" في هذا المحور هو الطاعون كما ذكرنا سابقا.

وقد شهدت الناحية الغربية أزمات صحيّة ومعيشيّة؛ فبالنسبة للمجاعات وصلت إلى ذروتها في السنوات التالية: 1779، 1786، 1793، 1798، 1800[12]، أما وباء الطاعون فنمثله في الجدول الأتي[13]:

السنة	المنطقة التي شهدته
1786	معسكر ووهران
1793	تلمسان
1794 إلى 1797	وهران
1798إلى 1800	وهران،معسكر،تلمسان

جدول يبيّن سنوات ظهور الطاعون التي شهدها بايلك الغرب أواخر القرن18م

من خلال الجدول نلاحظ تزامن ظهور المجاعات مع ظهور الأوبئة أو تعاقبها، وإن كان هذا التزامن ليس أمرا حتميّا فقد تظهر مجاعات دون أن تعقبها أوبئة [14]،رغم أنّ بعض الدراسات العلمية تشير إلى العلاقة السببيّة بين ظاهرتي الوباء والمجاعة فهناك ارتباط مباشر وغير مباشر بين نقص التغذية وانتشار المرض فغذاء الإنسان ضروري لإنتاج الخلايا البيضاء التي تحارب الأمراض الجرثوميّة القاتلة للإنسان[15].

وما يهمّنا في هذه المعطيات العدديّة هو أنّ هذا التزامن بين الأزمات وتعاقبها يؤدّي إلى كارثة ديموغرافيّة حقيقية تحصد من خلالها عددا هائلا من الضحايا، بحيث لا يكاد المجتمع يستريح من أزمة حتى تظهر أخرى.

وتجدر الإشارة إلى بعض مميّزات البيئة الثقافيّة و الواقع الصحيّ للمجتمع الجزائري أثناء التواجد العثماني ساهمت بطريقة غير مباشرة في تفاقم الوضع فالثقافة الصحيّة عموما تكاد تكون منعدمة ما عدا بعض الطرق العلاجية التقليدية المتوارثة التي يعتمدها السكّان المحلّيون في مواجهة الأمراض، إضافة إلى عدم وجود اهتمام بمسائل الطبّ والعلاج ونقص الأطبّاء حيث تشير بعض المصادر الأوروبيّة إلى عدم توفّر الجزائر على أطبّاء محليّين، يضاف إلى هذا انعدام المراكز الصحيّة والمستشفيات، ما عدا بعض المستشفيات (المارستانات) الخاصة بالمسيحيّين المتواجدين في الجزائر، والتي تتكفّل بعلاج الأسرى المسيحيّين[16].

في ظلّ هذه الأوضاع كان رجال السلطة يهتمّون بصحّتهم الخاصّة، وذلك بالاستعانة بالأطبّاء الأوروبيّين سواءاً الواقعين في الأسر أو المستقدمين من أوروبا، وهناك أمثلة عديدة عن بعض الباشوات كالباشا "بابا على" الذي كان لديه جراح فرنسي وقع أسيرا، و"الباشا حسين" الذي اعتمد على طبيب انجليزي[17]، وفي حين اهتم الباشاوات والبايات بصحتهم أغفلوا هذا الإهتمام عن المجتمع الذي كان يعتمد على طرق العلاج التقليدية كما ذكرنا سابقا.

كما ساهمت الخلفيّات الثقافية والمعتقدات الرّاسخة للمجتمع الجزائري والمبنيّة على الإستسلام للقضاء والقدر مع عدم اتخاذ الأسباب؛ فقد كانت فئة كبيرة من المجتمع تواجه الأزمات بالإستسلام لها على أنّها إرادة الله تعالى؛ فهي ترى أنّ الحل يكمن في المبادرة إلى

التوبة إلى الله، وردّ المظالم إلى أهلها[18]، أما الأسباب المباشرة التي أدّت إلى تأزّم الأوضاع الصحيّة فيمكن اختصارها فيما يلي:

- عدم اهتمام السلطة بالرعاية الصحيّة والاستهتار في مواجهة هذه الأزمات الفتّاكة ما عدا بعض المبادرات الشخصيّة مثل ما قام به الباي محمّد الكبير باستيراد كميات معتبرة من القمح، وطرحها في الأسواق لمواجهة غلاء الأسعار، كما كان يقوم بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين بالمجّان[19].

- موسم الحج من خلال وجود بيئات موبوءة في بلاد المشرق الإسلامي.

- الألبسة والأغطية بحيث يتم استخدامها من دون تطهيرها، بخاصة ألبسة الموتى، والتي تحمل الجراثيم الناقلة للوباء[20].

- موجات الجفاف المتكرّرة، وزحف الجراد، التي كانت تسبب ضعف الإنتاج الفلاحي، وبالتالي المجاعات، وقد كان يعقب هذه المجاعات انتشار الأوبئة[21].

3- **تأثير الأزمات الصحيّة على الوضع الديموغرافي**: لقد تعدّت آثار المجاعات والأوبئة إلى مختلف الجوانب الدّيموغرافيّة، وخاصّة التركيبة السكانيّة، والتي ركّزنا عليها كونها تساهم في توضيح الكثير من التغيّرات التي طرأت على المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة، كما تطرّقنا إلى الآثار الديموغرافيّة الأخرى لهذه الأزمات.

3-1- تأثير الأوبئة والمجاعات على التعداد السكّاني: إنّ أيّ دراسة ديموغرافيّة تحتاج إلى معطيات إحصائية واضحة لذلك نشير إلى وجود صعوبة في استقصاء المعلومات، وذلك لغياب التفاصيل الواضحة والمعطيات العدديّة[22]، هذا إضافة إلى أنّ المصادر المحلية لم تكن تذكر سوى لفظ الوباء أو الطاعون مع حصول أيّ مرض فتاك سواء كان مرضًا وبائيًا أو حمّى وبائيّة تتميّز بالانتشار وحصد عدد كبير من الأرواح[23]، كما وردت المعلومات دون ذكر تفاصيل حول عدد الوفيات مثل "وباء كبير هلك فيه الكثير من الخلق"، "وباء حصد الكثير من الأرواح"...، وهذا ما يصعب استقصاء المعطيات العدديّة الواضحة.

وما يمكن الإشارة إليه أنّه عند ذكر الوباء فإننا نقصد به الطاعون مع عدم تحديد نوعه، وذلك لأنّ المصادر لم تتطرق الى ذلك كما ذكرنا.

لذلك سنحاول ترتيب الأزمات كرونولوجيّا مع ما توفر لدينا من أرقام خلال الفترة المتأخّرة من القرن الثامن عشر كالآتي:

يذكر "مارشيكا" marchika أن الوباء انتشر بسرعة رهيبة خلال سنتي 1778و1779 في بايلك الغرب لكنّه لم يذكر أي تفاصيل حول عدد الضحايا أو حجم الخسائر[24]، كما يتحدّث عن هذه الفترة "استرهازي" esterhazy الذي يذكر أنها تزامنت مع تولّي الباي محمد الكبير الإيالة الغربيّة؛ حيث قضت المجاعة على عدد كبير من الضحايا[25]، وقد سبق هذا الوباء مجاعة خلال فترة تولي خليل باي الجهة الغربية، وقد أشار إليه مسلم بن عبد القادر بقوله: "وقع في عهد هذا الباي قحط شديد، ودام حتى منتصف 1777، ثم زال وأخصب الناس"[26].

خلال عام 1786 حلّ الوباء بوهران ومعسكر، وقد سبقت هذا الوباء مجاعة شهدتها وهران وضواحيها حتى امتدّت إلى معسكر[27]، ويذكر أن الباي عندما علم بحلول الوباء خرج هو وحاشيته خارج المدينة خوفا منه[28].

أثناء مرور الزيّاني بمدينة تلمسان سنة 1789م أشار إلى وباء كبير حلّ بها، وأنّه خرج فارّا منها لكنه أشار إلى كثرة الضحايا بقوله: "فما نزلنا منزلا إلاّ وجدنا أهله يدفنون موتاهم"[29]، وهذا يدل على أنّ الوباء خلّف عددًا كبيرًا من الضحايا.

خلال شهر أكتوبر من عام 1790 وقع بوهران زلزال كبير انهارت على إثره المدينة وضواحيها، واستمر عبر هزّات متكرّرة الى غاية 22 نوفمبر، وقد قدّر عدد ضحايا هذا الزلزال بحوالي 3000 ضحية[30]، وبعد هذا الزلزال عرفت وهران خلال سنة 1792 مجاعة كبيرة وصل الأمر بالنّاس من خلالها الى أكل لحوم البشر والخنازير وشرب الدم[31]، أعقب هذه المجاعة طاعون خلال سنة 1794 جعل المدينة خاوية على عروشها، وقد أطلق عليه اسم "طاعون عثمان" وعام "حبوبة عثمان" نسبة لعثمان ابن الباي محمّد الكبير الذي توفي نتيجة لهذا الوباء[32].

مع استمرار هذه الموجات الوبائيّة أبدى القناصل الأوروبيين بالمغرب الأقصى انزعاجهم وقلقهم من هذه الأوضاع، وذلك لوجود اتصالات بحريّة بين وهران والمغرب[33]، وما يؤكّد ذلك هو أنّ هؤلاء القناصل بطنجة المغربية اقترحوا خلال سنة 1793 على السلطان المغربي مولاي سليمان تطبيق الحجر الصحيّ على الحدود الشرقيّة مع الجزائر، كما تمّ تطبيق الحجر خلال سنة 1797 على جميع السفن القادمة من وهران، وشلّ جميع المواصلات مع الحدود[34].

خلال سنة 1798 اجتاح الطاعون مدينة تلمسان، ثم امتدّ إلى المغرب إلى غاية 1804، ثم عاد مجددًا إلى وهران في 23 مارس عام 1799 من خلال وفاة أحد الحجاج الأربعة عشر القادمين على متن سفينة تركيّة بعد وصولها في 17 مارس[35]، وقد أكد وجود هذا الوباء أحد الأطبّاء المحليّين، وأشارت المصادر إلى أن الوفيات جراء هذا الطاعون كانت تنتشر بشكل رهيب بحيث تسجّل في اليوم 15 ضحيّة، ثم ارتفعت وتيرتها وامتدت إلى المدن المجاورة: تاقدامت ومعسكر وتلمسان، وقد اختفى هذا الوباء في العشرة أيّام الأولى من شهر جوان[36].

وإذا ما أردنا إجراء عملية حسابيّة بسيطة فإن معدل 15 ضحيّة في اليوم يقضي على أكثر من ألف ضحيّة خلال الفترة سالفة الذكر.

ما يمكن استنتاجه من المعطيات السابقة هو أنّ الوباء خلال سنتي 1786 و1787، والذي تتزامن مع نهاية القرن 18 كان من أشدّ الأوبئة خلال العهد العثمانيّ، وأكثرها فتكا بالسكّان.

ما يؤكّد حجم هذه الخسائر هو ما أشار إليه خير الدّين سعيدي حول إحصائيات ضحايا الطاعون في كامل الإيالة الجزائريّة حيث ذكر رقم 24813 ضحيّة خلال سنة 1786، و17048 ضحيّة خلال 1787م، ثمّ 13200 ضحيّة سنة 1797، وهذا ما يبين مدى الانهيار الديموغرافي الذي تعرّضت له الجزائر خلال هذه السّنوات[38].

أمّا بالنسبة لبايلك الغرب فإنّنا وفي ظلّ ما توفّر من معلومات نقف على إحصاء عدد السكّان بأهمّ المدن مع بداية الإحتلال الفرنسي 1830م من خلال الجدول الآتي[39]:

المدينة	عدد السكان
تلمسان	لم يتجاوز 15000 نسمة
وهران	10000 نسمة
معسكر	6000 نسمة
مستغانم	4000 نسمة
مازونة	2600 نسمة

جدول يبيّن عدد سكّان بعض مدن بايلك الغرب مع بداية 1830م

من خلال هذا الجدول نلاحظ تضاءل عدد السكّان بهذه المدن، والسبب الرئيسي على كل الاحتمالات هو سوء الأحوال الصحيّة والمعيشيّة، ولتوضيح ذلك نجري مقارنة بسيطة مع عدد سكّان بعض هذه المدن في بداية القرن الثامن عشر كالآتي:

- سكان مدينة مستغانم بلغ تعدادهم 12000 نسمة ليصبح 4000 فقط[40].

- سكان مدينة وهران تضاءل عددهم من 15000 إلى 10000 ساكن رغم تحويل عاصمة البايلك إلى المدينة بعد تحريرها سنة 1792م.

- تناقص عدد سكان مدينة تلمسان من 25000 نسمة إلى 15000 نسمة[41].

- أمّا مدينتي معسكر ومازونة فلم تشهد تغيرًا كبيراً في البنية السكانيّة.

من خلال المعطيات المتوفرة في الجدول حول عدد السكّان في بداية 1830 ومقارنتها مع بداية القرن 18 نلاحظ تناقصا واضحًا في عدد السكّان، والتفسير المنطقي لهذا الخلل في نمو السكّان يعود إلى اشتداد وطأة الأوبئة والمجاعات، وتعاقبها خلال فترة وجيزة كما أشرنا إلى ذلك سابقا، والتي أودت بحياة الكثير من السكان طيلة هذه الفترة.

3-2- آثار الأوبئة والمجاعات على الجوانب الديموغرافية الأخرى: إنّ تأثيرات المجاعات والأوبئة على الجانب الديموغرافي لم تقتصر على التعداد السكاني فقط، بل تعدّت آثارها إلى نشاطات المجتمع الجزائري بصفة عامة.

لقد فقدت المنطقة الغربية خلال هذه الأزمات الكثير من الشخصيّات العلمية والدينيّة كالشّيخ عبد القادر بن السنوسي بن دحو بن زرفة، وأخيه الشّيخ الهاشمي، والفقيه مصطفى بن عبد الله مؤلف "الرسالة القمرية"[42]، كما توفي الحافظ أبو راس النّاصر متأثّرا بالوباء سنة 1822م[43]، وهذا ما سيؤدّى إلى تراجع الإنتاج الفكري والأدبي، وتقلّص النشاط الثقافي بصفة عامة.

إنّ تدهور الأوضاع الصحية والمعيشية أدّى إلى تفكك البنية الاجتماعيّة؛ فقد اندثرت أسر وقبائل بكاملها مثل ما وقع مع قبيلة الأمجاد التي قضى عليها طاعون 1786م حتى سمّي هذا الطاعون بـ"طاعون الأمجاد" أو "حبوبة الأمجاد"[44].

لقد تعدّت آثار هذه الأزمات إلى الجانب الاقتصادي من خلال تقلّص النّشاط الحرفي والصّناعي؛ فقد انقرضت الكثير من الحرف والمهن، إضافة إلى هجرة النّاس لأراضيهم، والتخليّ عن النّشاطات الفلاحية هروبا من هذه الأوضاع؛ ما أدّى إلى تدهور الإنتاج

الزراعي[45]، كما أنّ ارتفاع أسعار الموادّ الأساسيّة كالقمح والشعير زاد من حدّة المجاعات، وبالتالي التراجع الرهيب في حجم المبادلات التجاريّة سواءً الداخليّة أو الخارجيّة، وبالتحديد مع الدّول الأوروبيّة، والتي كانت أهمّ نشاطاتها التجاريّة مع الجزائر تتمثل في تجارة القمح[46].

لقد تدهور الوضع المالي للبلاد نتيجة المجاعات المتعاقبة من خلال عجز مصادر الدّخل على تغطية نفقات سنوات القحط والجفاف[47]، كما أدّت المجاعات إلى ارتفاع الأسعار بشكل مضاعف؛ حتى عجز الكثير من السكّان في ظلّ الفقر وضعف القدرة الشرائيّة على اقتناء المواد الغذائية الضروريّة كالقمح الذي كان سعر الصاع الواحد منه يتضاعف عدّة أضعاف مع حدوث الأزمات[48].

يضاف إلى تدهور الوضع الإقتصادي هجرة السكّان لأراضيهم هروبا من الأوبئة، وتوجههم إلى مناطق أخرى لم تصلها حتى ولو كانت بعيدة، وقد أدى تخلى الكثير من الأسر عن ممتلكاتها إلى الفقر والحاجة لدى كثير من السكان، وبتخلي الناس عن الأراضي الفلاحيّة تأثّر النشاط الزراعي، وذلك بتراجع الإنتاج واللّجوء إلى الاستيراد؛ كما استغلّ العديد من الانتهازيين هذا الظرف لرفع الأسعار وممارسة الاحتكار[49].

إضافة إلى كلّ ما سبق ذكره؛ تجدر الإشارة إلى ما خلّفته بعض الثورات والتمردات المحليّة من نزيف ديموغرافي كبير، وأبرز مثال على ذلك في بايلك الغرب الثورة الدرقاويّة على السلطة العثمانيّة خلال سنة 1805م، والتي حصدت الكثير من الأرواح، واستنزفت قدرات وطاقات السلطة الحاكمة، وأرهقتها دون تحقيق نتائج لكلا الطرفين[50].

إنّ تاريخ الأوبئة والمجاعات الذي يدخل في سياق التأريخ للأزمات، ومن خلال الآثار الإجتماعية والنفسية الرهيبة التي تركتها في الجزائر خلال هذه الفترة كانت عاملا من عوامل الهشاشة البنيوية في العنصر البشريّ، فمقارنة بالدول الأوروبية في هذه الفترة كان العنصر البشري عاملا مهما في تطور هذه الدول، وتنفيذ مشاريعها التوسعيّة والاستيطانية، وكان النموّ الديموغرافي قد ساهم في تطوّرها بفضل التخلّص من الأزمات الصحيّة في نفس الفترة التي كانت الجزائر تعاني فيها من الانكماش الديموغرافي[51].

بقي أن نتطرّق في النّهاية إلى تعامل السلطة العثمانية مع هذه الأزمات؛ فقد كان هناك تباين بين رجال السلطة العثمانيّة من حيث الاهتمام بتطبيق الحجر الصحي، ويعود ذلك إلى مدى وعي وصرامة الحكام؛ فمنهم من كان يواجه هذه المخاطر بالاستهتار واللاّمبالاة خلال

نهاية القرن الثامن عشر، نذكر في هذا الشأن بعض نماذج ردود الفعل تجاه الأزمات؛ وأبرز مثال على ذلك التهاون ما حدث خلال سنة 1786م حيث سمح الدّاي محمّد برسوّ سفينة موبوءة في ميناء مدينة الجزائر ما ساهم في انتشار العدوى[52].

أمّا بالنسبة للمجاعات نذكر أنه خلال تولّي الباي محمّد الكبير الإيالة الغربية حدثت مجاعة عظيمة تصدّى لها الباي باستيراد كميات معتبرة من القمح، وطرحها في السوق ليتمكّن الناس من شرائها بأسعار معقولة، كما فتح قصره لإطعام الفقراء والمساكين والتصدّق عليهم[53].

خاتمة: من خلال ما سبق ذكره نشير إلى بعض الاستنتاجات التي توصلنا إليها:

- إنّ الوضع الديموغرافي في بايلك الغرب يتشابه في الكثير من خصائصه بالوضع في كامل الإيالة الجزائرية من حيث النمط المعيشي والخصائص الثقافية والتنوع العرقي والديني.

- شهدت الجهة الغربية أزمات صحيّة ومعيشيّة سيئة خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر كان أخطرها ما حدث سنتي 1786 و1787م.

- ساهمت عوامل بشريّة في تدهور الأوضاع كالتواصل الروحي مع بلدان المشرق الإسلامي، والمبادلات التجارية مع الدول الأوروبية والبلدان المغاربية، إضافة إلى عدم الاهتمام بالجانب الصحيّ من طرف السلطة العثمانيّة.

- إضافة إلى العوامل البشرية؛ هناك عوامل طبيعيّة كالجفاف واجتياح الجراد والزلازل مثل زلزال وهران سنتي 1790 و1791م.

- فاقت الآثار الديموغرافية لهذه الأزمات خلال هذه الفترة الوجيزة ما خلفته الثورات المحليّة والحملات الخارجيّة بالمنطقة الغربية طيلة التواجد العثماني.

- ساهمت هذه الأزمات في خراب المدن والأرياف، والإخلال بالتوازن السكاني، والتغيير الجذريّ في البنية الاجتماعيّة، كما تعدّت آثارها المدمرة لتشمل مختلف المجالات.

- وفي الأخير تجدر الإشارة إلى أن مجال البحث في المواضيع الصحيّة والاجتماعيّة خلال الفترة العثمانية لا يزال خصبا مقارنة بالمواضيع السياسيّة والعسكريّة التي تم التطرق إليها بشكل واسع.

الهوامش:

1- بن عمر حمدادو- ظاهرة الأوبئة والأمراض بالجزائر من خلال كتاب أقوال المطاعين في الطعن والطواعين لأبي حامد المشرفي- مجلة عصور- مختبر مصادر وتراجم- جامعة وهران1- ع 37- أكتوبر- ديسمبر- 2017- ص232.----2- حنيفي هلا يلي- أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني- دار الهدى- عين مليلة- الجزائر- 2008- ط1- ص163.----3- ناصر الدين سعيدوني- النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-1830)- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1979- ص42. ---- 4- نفسه- ص43. ---- 5-نفسه- ص44.---6- ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي- الجزائر في التاريخ العهد العثماني- ج4- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1984- ص87.

7- كمال بن صحراوي- أوضاع الريف في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني- رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث- كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية- جامعة وهران- 2013/2012، ص242. ---- نفسه- ص242. ----9- عائشة غطاس- الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني- مجلة الثقافة- الجزائر- العدد 76- أوت 1983- ص124. ----10- محمد الزين- نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية في أواخر عهد الدايات- مجلة الواحات للبحوث والدراسات-العدد 17- 2012- ص132.---- 11- ناصر الدين سعيدوني- النظام المالي للجزائر...- ص42.---- 12- نفسه- ص43. ----13- نفسه- ص44.---- 14- ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي- مرجع سابق- ص87. ---15- خير الدين سعيدي- المجاعات والأوبئة في الجزائر خلال العهد العثماني (1700-1830)- أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة 8 ماي 1945- قالمة- السنة الجامعية 2018-2019-ص32.---- 16- وافية نفطي- مسألة علوم الطب والصيدلة عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني- آفاق فكرية- المجلد5- عدد 10-ماي 2019- صص21- 25.---- 17- أبو القاسم سعد الله- تاريخ الجزائر الثقافي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- 1998- ط1- ج2 ص418. ---- 18- خير الدين سعيدي- مرجع سابق- ص243. ---19- فلة القشاعي موساوي- الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الإحتلال الفرنسي (1515-1871)- منشورات ابن سنان، الجزائر- 2013- ص236. ----20- كمال بن صحراوي- مرجع سابق- ص175.----21- سميرة طالي معمر- القوى المحلية في بايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني 1792-1831- مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة الجزائر- 2009-2010- ص65. ---22- خالد بالعربي- الأوبئة والمجاعات بتلمسان في العهد الزياني 1299م-1442- دورية كان التاريخية- العدد الرابع- يوليو 2009- صص19-29.----23- الحسين الفرقان- مفهوم الوباء عند الإخباريين المغاربة في القرن التاسع عشر- الجمعية المغربية للبحث التاريخي- أكتوبر 2002- ص310.

24-Jean marchika- la peste en Afrique septentrionale- histoire de la peste en Algérie de 1363-1830- présentée le 20 Mai 1927- Université d'Alger - faculté mixte de médecine et de pharmacie d'Alger, Année 1927 - non publié- p108.

25- أحمد بن سحنون الراشدي- الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني- تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي- عالم المعرفة للنشر والتوزيع- ط1- 2013- ص144.----26- مسلم بن عبد القادر- تاريخ بايات وهران أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر- تحقيق وتقديم رابح بونار- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1394هـ/1974م- ص22.----27- سعيدوني والبوعبدلي- مرجع سابق- ص90.----28- فلةالقشاعي- مرجع سابق- ص448. ----29- أبو القاسم الزياني- الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرا- حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي- دار المعرفة للنشر والتوزيع- الرباط- ط2- 1412هـ/1991م- ص184.

30- Esterhazy Louis-Joseph- Ferdinand Walsin- De la domination turque dans l'anciènne régence d'Alger - éditeur - C. Gosselin - Paris, 1840- p189.----31- opcit-p 189.----32- Jean marchika -op cit -p125.

33- مصطفى خياطي- الأوبئة والمجاعات في الجزائر- ترجمة حضرية يوسفي- منشورات anep- الجزائر2013- ص56.----34- محمد الأمين البزاز- تاريخ الأوبئة والمجاعات في المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر- منشورات كلية الآدب والعلوم الإنسانية- الرباط- 1992- صص83-85.---- 35- فلة القشاعي- مرجع سابق- ص127.

36- Jean marchika,op cit,p145.

37- مصطفى خياطي-مرجع سابق- ص56.

38- Jean marchika -op cit -p148

39- فتيحة الواليش- الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر- رسالة ماجستير في التاريخ الحديث- جامعة الجزائر- السنة الجامعية 1993-1994- ص108. ----40- أرزقي شويتام- المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني (1519-1830)-رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر- جامعة الجزائر- السنة الجامعية 2005-2006- ص82. ----41- مصطفى خياطي- مرجع سابق- ص57. ----42- سعيدوني والبوعبدلي- مرجع سابق- ص 92.----43- مسلم بن عبد القادر- مصدر سابق- ص26.---44- بومدين دباب- بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18- أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس- السنة الجامعية 2016 /2017- ص148.--45- فلةالقشاعي- مرجع سابق- ص476. ----46- خير الدين سعيدي- مرجع سابق- ص287.----47- ناصر الدين سعيدوني- النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792-1830)- دار البصائر للنشر والتوزيع- الجزائر- ط3- 2014- ص53.----48- نفسه- ص54.----49- كمال بن صحراوي- مرجع سابق- ص178.----50- عبد القادر بن صحراوي- ثورة الطريقة الدرقاوية في الجزائر أواخر العهد العثماني- الحوار المتوسطي- العدد 15-16- مارس 2017- ص465. ----51- محمد الأمين البزاز- مرجع سابق- ص12. ----52- هجيرة غراف- السلطة العثمانية وآليات الوقاية من الأوبئة في إيالة الجزائر "الحجر الصحي أنموذجا"- مجلة القرطاس للدراسات الفكرية والحضارية- جامعة تلمسان- المجلد 7- ع 2- ص155.----53- ابن سحنون الراشدي- مصدر سابق- ص144.